

## التباين اللغوي و الفئوي الاجتماعي

– دراسة تأثير الانتماء الاجتماعي على اللغة العربية للمتعلم من النظرة الخلدونية إلى بازيك بيرنشتاين –  
تاريخ الاستقبال: 2017/03/22 - تاريخ المراجعة: 2017/05/22 تاريخ النشر: 2017/06/25

علوط الباتول  
جامعة زيان عاشور بالجلفة

بوزار ربيحة دينار زاد  
جامعة زيان عاشور بالجلفة

الملخص:

لا تعيش اللغة في فراغ ، و لا يمكن كذلك دراستها من فراغ ، فاللغة ظاهرة لها أنماطها و أشكالها و عناصرها و بيئتها الاجتماعية التي تولد فيها و تنطلق منها . اللغة جزء من المجتمع ترتبط به و تعكس أبعاده و تكشف عن مستوياته ، و هي السبيل لتحقيق التواصل و التفاهم بين أفراد الجماعة كونها سلسلة من النشاطات المنتظمة التي تتسم بالمرونة و الاستجابة لما يحدث في المحيط الذي تلد فيه .

و من المعروف أن الطفل يكتسب اللغة متأثرا بما تواضعت عليه جماعته الاجتماعية من استعمالات لغوية تضمنتها بيئته الاجتماعية منذ بداية نمو اللغة لديه . على هذا أبدى العديد من علماء الاجتماع اهتمامهم بالجانب الاجتماعي للغة ، و توجه الفكر الاجتماعي إلى تحليل جملة المواقف اللغوية المعبرة عن خلاصة تجارب الفرد التي تعكس هويته الاجتماعية ، من هذه الدراسات ما أقامه العلامة عبد الرحمان ابن خلدون من دراسة وصفية تحليلية في تمييزه بين اللغة المكتسبة و اللغة المتعلمة ، و ما أقره عالم الاجتماع البريطاني بازيك بيرنشتاين من أن الوسط الاجتماعي يحدد مستوى اللغة و شكلها حيث لكل فئة اجتماعية لغتها الخاصة بها انطلاقا من كونها النماذج اللغوية المستخدمة في إطار الحياة اليومية و العائلية . و أن هذه الأنماط اللغوية تقترب أو تبتعد عن النموذج اللغوي الرسمي – الفصحى – بدرجات تختلف باختلاف طابع و مستوى الحياة الاجتماعية لكل فئة اجتماعية .

– Abstract :

Language does not live in a vacuum' it can't be also studied in it' because it is a phenomenon that has its own patterns' forms' elements and social environment in which it is born and launched. Language is a part of the society' they are linked together and it reflects its dimensions and reveals its levels' it is the way to achieve communication and understanding among

the members of the community as a series of regular activities that are flexible and responsive to what is happening in the environment in which it is birthed.

It is known that the child acquires his language by drawing inspiration and by being influenced from his surroundings and especially by means of the jargon used by the latter daily' and that since the beginning of the growth of the language at home. Thus' many sociologists expressed their interest in the social side of the language' and the orientation of social thought to analyze the linguistic positions expressed by the summary of individual experiences; which reflects his social identity. One of the most prominent of these studies is made by the scholar Abdurrahman Ibn Khaldun of an analytical descriptive study in his distinction between the acquired and learned language. And those approved by British sociologist Basil Bernstein that the social environment determines the level of language and its form in which each social group has its own language since it is the linguistic models used daily in the context of family life. Moreover' these linguistic patterns approach or move away from the official language model – Eloquent – which vary according to the nature and level of social life of each social group.

– الكلمات المفتاحية :

– التباين اللغوي – اللغة – الفئوية الاجتماعية – الطبقات الاجتماعية – الانتماء الاجتماعي – السجل اللغوي  
– الرمز اللغوي المتطور – الرمز اللغوي المحدود .

– Linguistic variation – language – social class – social category – social affiliation – linguistic record – sophisticated language code – limited language code.

– مقدمة :

انصب اهتمام الدراسات اللسانية في العلوم اللغوية على اللغة من حيث الشكل و الدلالة و المورفولوجيا الصوتية ، بالمقابل نجد أن الدراسات السوسiolغوية قد اهتمت بالجوانب الاجتماعية للغة من حيث نشوئها و ارتقائها و وظيفيتها و تأثير الوسط الاجتماعي في تطورها ، أما الدراسات الاجتماعية التربوية فقد بذلت من الجهد في التعمق

في تحليل معطيات هذه العلاقة قصد إبراز ما تحدثه من أثر على متغيرات الجانب التربوي المدرسي للأطفال المتعلمين قصد فهم الطفل وفق معطياته البيئية ومساعدته على التأقلم والنجاح المدرسيين . أي دراسة تأثير العوامل الاجتماعية على السلوك اللغوي ، على أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن الحديث عن اللغة في هذا السياق يقصد به وجود أنماط خاصة من التعابير لا وجود لغات متباينة من حيث الجوهر ، أضف إلى ذلك أن المقصود بالسلوك اللغوي لا يأخذ منحى نفسي بل اجتماعي بحت يعكس القدرة على إبراز الذات الفردية وسط الوجود الاجتماعي ، ثم تكامل هذه الذات الفردية مع العناصر الاجتماعية المشكلة للسياق الاجتماعي الذي يعيش فيه هذا الفرد من خلال قدرتها على أداءها لوظائفها الاجتماعية اتجاه الجماعة من تفاعل وتواصل ، ثم ما يستطيع هذا الفرد تقديمه للجماعة الاجتماعية التي يشكل جزءا منها . فالفرد ذاته يتكلم بطرق مختلفة وفقا للسياقات الاجتماعية المختلفة ، من جهة أخرى طريقة كلامه و سجله اللغوي المعتمد يعكس أصله الاجتماعي و مستواه التعليمي بل وحتى توجهاته و معتقداته الدينية .

و عليه فإن اللغة لا تعد فقط عاملا أو أداة لنقل رسالة مفهومة ، و لكن الفرد يستعملها و يستعين بها من أجل التعريف بنفسه – سواء كان ذلك بطريقة شعورية مقصودة أو عفوية غير شعورية – و من خلالها تتحدد علاقته بالمخاطب ، و يتحدد مفهوم لهويته الاجتماعية و لانتمائه الاجتماعي .

– أهداف الدراسة :

– الكشف عن تأثير الوسط الاجتماعي الأسري و الثقافي على قدرة المتعلم الطفل على التمكن من الممارسة السليمة للغة .

– التحقق من فعالية التأثير القائم بين انتماء الفرد إلى فئة معينة و قدرته على استخدام عالي الأداء للغة .  
– توجيه اهتمام القراء و الباحثين إلى التعامل مع مفهوم الفتوى الاجتماعية عوض الطبقية الاجتماعية لكسر الحاجز المادي الذي يفصل الطبقات بعضها عن بعض ، و اعتماد الجانب الثقافي و المستوى التعليمي أساسا إلى جانب الجانب الاقتصادي في التصنيف الاجتماعي المؤسس للتباين اللغوي .

– إن التحولات الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية و التكنولوجية المتسارعة التي مست كل شرائح المجتمع الجزائري عموما و المجتمع الجلفي خصوصا دفع إلى ظهور حراك اجتماعي سريع صعودا و نزولا أثر في بناء الهوية الاجتماعية للعائلات على اختلاف انتماءاتها الفتوية . و عليه تستهدف الدراسة بالبحث تأثير هذه الهويات الاجتماعية الجديدة على الوجود الاجتماعي للطفل .

– الكشف عن دور المدرسة في تنمية الزاد اللغوي للمتعلم بغض النظر عن انتمائه الفتوي و الذي سيصل من خلاله إلى النجاح الدراسي ثم النجاح المهني ثم الحراك الاجتماعي ثم الانتقال الفتوي .

– البحث في الحلول المناسبة التي يمكن اعتمادها من قبل الأسرة و المدرسة لمساعدة الطفل على التأقلم ثم التمكن ثم السيطرة على اللغة العربية الفصحى التي أصبح يخشاها الطفل و يراها عائقا يحول بينه و بين

النجاح.

- تحويك اهتمام المجتمع الجزائري عامة و الجلفي خاصة ممثلا في نخبته من باحثين و مثقفين و أساتذة و مفتشين و معلمين و مهتمين ، ثم عامته من فئات المجتمع المختلفة نحو توجيه الوعي الاجتماعي و تركيزه حول أهمية اللغة العربية في بناء الهوية الاجتماعية و الثقافية و تحقيق النجاح المدرسي و المهني و منه الاجتماعي و التي صرف المجتمع عنها نظره و اهتمامه و أصبح يراها أمرا ثانويا بل و عائقا يحول بين الفرد و التفوق .

- نحن اليوم في زمن يستدعي أكثر من أي وقت مضى إبراز الذاتين الفردية و الاجتماعية و التمسك بمعطيات الهوية و التي أساسها الأول هو اللغة ، و أرى أنه من الضروري على الباحث في علم الاجتماع بوصفه الأقدر على دراسة معطيات العلاقة من جانبها المنشئي - كيف لا و منشأ اللغة اجتماعي - أن يحيل النظر للموضوع تشخيصا و تحليلا و معالجة لأن نعيد للغة رونقها و كمالها الذي اندثر و نعيدها مكانتها التي ستدفع الفرد نحو تحقيق التميز لا النجاح فحسب ، دون إهمال و لا إغفال للخصائص الاجتماعية للجماعات التي يعيش ضمنها الفرد ؛ فاللغة العربية ليست عنصرا دخيلا كما أصبح يراه البعض و لكنها الأساس لبناء المجتمع الجزائري و دفعها نحو النضوج ، و ما أحوجنا إلى ذلك .

- أهمية الدراسة :

تتحدد أهمية الموضوع من حيث أن اللغة هي مفتاح تحصيل العلوم و المعارف ، حيث يلعب المعجم اللغوي للطفل أهمية بالغة في تحصيل المعرفة و التحكم فيها . فالطفل يرد إلى المدرسة مشبعا بمعطيات ثقافية منشؤها البيئة الاجتماعية التي ولد و تنشأ بها و من ضمنها نعد اللغة ، فيجد في المدرسة معطيات ثقافية و لغوية قد تقترب أو تبتعد عن ما عهده الطفل في بيئته الاجتماعية أصل المنشأ ، و على الطفل أن يتفاعل و هذه المعطيات الجديدة مستندا في ذلك على مكتسباته القبلية ، فهناك من المتعلمين من يظهر تفاعلا فوريا و عفويا و هذه المعطيات ، و منهم من يجد صعوبة في ذلك فيظهر قصورا أول ملامحه و أهمها القصور اللغوي ؛ و عليه لا يظهر قصور الطفل على استخدام اللغة فحسب بل كذلك في التعرف على بعض المعطيات الثقافية التي لا يجد لها تسميات لا وفق معجمه اللغوي الاجتماعي و لا وفق معجمه اللغوي المدرسي .

الحقيقة أن على المتعلم اليوم على ضوء الدقة العلمية المطلوبة و على هامش التخصصات المعرفية الحديثة بات من الواجب ليس فقط الوقوف على معاني الكلمات و حسن توظيفها بل و القدرة على تعريفها تعريفا دقيقا و شاملا ، و لا يحصل ذلك إلا إذا تمكن المتعلم من لغته تمكنا يعكس تحكما و سيطرة معا ، و لا يتأتى ذلك إلا بتضافر عاملين هما : العامل الاجتماعي متضمنا في البيئة الاجتماعية التي يولد فيها الطفل و ينشئ ضمن معطياتها الثقافية ، و العامل التعليمي متضمنا في المدرسة و ما تقدمه لهذا المتعلم من كفاءات لغوية سليمة . و لكن هل المعطيات الاجتماعية هي نفسها بالنسبة لكل الأفراد أم أنها تختلف باختلاف الفئات الاجتماعية ، و هنا تظهر أهمية الموضوع .

- مشكلة البحث :

أكد العديد من الباحثين أن اللغة ظاهرة اجتماعية ، و اللغة في وظيفتها الاجتماعية ترتبط بكل العناصر المكونة للمجتمع ، حيث لا يمكننا الخوض في أي جانب أو ركن لهذا المجتمع بمعزل عن اللغة ، فاللغة هي الكيان والوجدان والثقافة والبنيان المركب لكل مجتمع .

الحقيقة أن اللغة كانت دائما محور دراسات اجتماعية اختلفت زواياها بين التفاعلية والوظيفية والتبادلية والرمزية وغيرها ، والمتتبع للدراسات اللغوية من جانبها الاجتماعي يرى أن الدراسات الاجتماعية قد نحت منحاً جديداً في دراساتها المعاصرة حول قانونية العلاقة التي تربط بين الثنائية - اللغة والبيئة الاجتماعية - من أن الوسط الاجتماعي يحدد مستوى اللغة وشكلها حيث لكل فئة اجتماعية لغتها الخاصة بها انطلاقاً من كونها النماذج اللغوية المستخدمة في إطار الحياة اليومية والعائلية .

لا تصب الدراسة اهتمامها فقط على كون الطفل المتعلم يحظى في وسطه الاجتماعي بمعطيات ثقافية معينة أو لا يحظى بها ، و لكن يتسع إلى ما تقدمه هذه البيئة من معطيات تدفع هذا الطفل للتفاعل والمعطيات الثقافية واللغوية الجديدة الموجودة في المدرسة أو تثبته عنها ، من منطلق انفتاح الفئات الاجتماعية أو انغلاقها على معطياتها الثقافية من جهة وتشجيعها للمتعلم على استخدام اللغة العربية الفصحى في البيت والشارع لمساعدته على التمكن منها أم العكس . ثم كيف تتعامل المدرسة مع مختلف هذه الفروقات اللغوية التي يفرضها الوجود الاجتماعي من حيث احتوائها وتشخيصها ومعالجتها ، خصوصا وأن التفاعل الإيجابي الكائن بين اللغة والطفل يساعد هذا الأخير على التمكن من المواد الدراسية العلمية منها والإنسانية ، فعند قراءته لأي نص أو سند أو مطلوب معين وفي كل مرة يجد المتعلم نفسه أمام مفردات غامضة فإن ذلك سيشكل حتما عائقاً فكرياً يحول دون تحقيق الكفاءة المستهدفة من النص أو السند أو المطلوب ، و هنا إما أن يبقى الطفل عاجزاً عن التفاعل فهو عاجز عن التقدم ، وإما أن يبحث عن مفهوم يساير المفردة الغامضة باعتماده طبعاً على سجله الاجتماعي القريب من لغة المدرسة فيتعدى العائق الفكري واللغوي معا .

- مفاهيم اصطلاحية :

أولاً - التباين اللغوي :

قبل أن نعكف على تعريف مصطلح « التباين اللغوي » وجب علينا الانتقال من الجزء من خلال بيان مفهومي التباين واللغة للوصول إلى كلية المصطلح . و عليه عرفت المعاجم اللغوية لفظة التباين المشتقة من تباين يتباين ، تباينا فهو متباين ، على أنه الاختلاف والافتراق والتباعد والتفاوت . ( المعجم العربي الأساسي ، ص 188 ) .

أما اللغة في معناها اللغوي فهي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم ، وهي كل وسيلة لتبادل المشاعر والأفكار بالإشارات والأصوات والألفاظ . ( المعجم العربي الأساسي ، ص 1092 ) .

أما المنحى الاصطلاحي في تعريف اللغة فإنه أمر في غاية الصعوبة ، ذلك أن تعريفاتها تختلف باختلاف منطلقات معرفتها . فتعرف اللغة عند اللغويين بأنها : « نظام من الأصوات المنطوقة له قواعد تحكم مستوياته المختلفة ، الصوتية و الصرفية و النحوية ، و تعمل هذه الأنظمة في انسجام ظاهر مترابط وثيق » . ( سهير محمد سلامة شاش ، 2007 ، ص 14 ) .

و عرفها عبد الرحمان ابن خلدون ( 1332 - 1406 ) في مقدمته بأنها : « ملكة في اللسان » . ( ابن خلدون عبد الرحمان ، 2007 ، ص 607 ) .

و عرفت على أنها « أداة اتصال تتكيف مع حاجات أولئك الذين يستعملونها » . - Garmadi . j ' 1981 ' ( 21 p )

و يعتبرها فيشمان من بين الظواهر الاجتماعية ، تتأثر بها تأثراً كبيراً . ( رمضان عبد التواب ، 1985 ، ص 129-128 ) . و أنها نتاج علاقة اجتماعية و نشاط اجتماعي و وسيلة يستخدمها المجتمع في نقل ثقافته من فرد لفرد و من جيل لجيل ، كما تعد من أوضح سمات الانتماء الاجتماعي للفرد . ( عبد الله سويد ، 1993 ، ص 44 ) .

و من جهة أخرى نجد أن ايميل دوركايم Émile Durkheim David ( 1858 - 1917 ) قد اعتبر اللغة ظاهرة اجتماعية حيث تحدث عن شيئية اللغة ، و القول بشيئية اللغة يوحي بكونها ظاهرة مادية خارجية عن الفرد ، تخضع للملاحظة و التجريب ، تجري عليها قوانين و مبادئ المنهج الطبيعي ، و هي بذلك ظاهرة مستقلة تفرض هيمنتها على الفرد و هذا ما سعت المدرسة الوضعية إلى إقراره ، فالمجتمع منتج للغة و خاضع لها في نفس الوقت .

( Grawitz Madeline ' 1984 ' 314 p ) ، و في ذلك إحالة إلى العلاقة القوية بين اللغة و البيئة الاجتماعية التي تولد فيها . و يعتبرها جون ديوي Dewey John ( 1859 - 1952 ) نمطا من السلوك الاجتماعي ، و نمطية السلوك تعكس تواتره بصورة منتظمة داخل المجتمع الشيء الذي يؤدي بطريقة عفوية أو مقصودة إلى تقنين هذا السلوك بما يتوافق مع البيئة الاجتماعية التي تحوي هذا السلوك . و تبناها فيرديناند ديسوسير Saussure de Ferdinand ( 1857 - 1913 ) حيث يؤكد بدوره على أهمية العلاقة التي تربط بين اللغة و الحياة الاجتماعية ، و ما لهذه الأخيرة من دور في نمو اللغة و تطورها و تباينها .

أما عن التباين اللغوي فهو يعبر عن أنماط خاصة من التعبير ، تتباين في مستوى رمزيها و في مستوى تسلسلها المنطقي و في غزارة المفردات و أنماط الدلالة . ( علي أسعد وطفة و علي جاسم الشهاب ، 2004 ، ص 184 ) .

و في تعريفه الإجرائي يظهر التباين اللغوي على أنه : الاختلاف القائم بين الأفراد في تبني الأنماط التعبيرية المختلفة من حيث الرموز اللغوية المستعملة و البنية الدلالية التي تحملها هذه الرموز و القدرة على الاسترسال في

الكلام و الدقة في الوصف و الاهتمام بالجزئيات و طول الجمل و اختيار الألفاظ و المفردات المناسبة ، إضافة إلى ما يتمتع به كل فرد من رصيد لغوي ، و هي مؤشرات تختلف باختلاف الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد و ينتسب .

ثانيا - الفئوية الاجتماعية :

قبل التعرف على مفهوم الفئوية الاجتماعية لابد و أن نوضح أن استخدام تعبير « طبقة » لدراسة الظواهر الاجتماعية حديث إلى حد ما . بالمقابل كان تعبير فئة وحده مستخدما حتى ذلك التاريخ ، و استبدل التعبيرات تدريجيا الواحد بالآخر ، و بعد أن كانت الطبقة تعرف بالرجوع إلى الفئة انعكست المرجعيات مع الزمن . هو الشيء الذي حاول بيغي 1996 تلخيصه في كتابه « الطبقة : تاريخ الكلمة و تكوين المفهوم من الفيزيوقراطيين حتى مؤرخي عصر عودة الملكية *du genèse et mot du Histoire : Classe* restauration la de historiens aux physiocrates des concept » ، حيث يرى أن تعبير طبقة يترجم إرادة فعل و تفسير ، في حين أن فئة تعود بالأحرى إلى واقع ملاحظ . فالفئة هي مجموعة من الأشخاص - و في النادر من الأشياء - التي يبدو أن وجودها مستقل عن الفكر و الإرادة البشرية ، فليس بإمكان الإنسان أن يوجد بها بل يستطيع فقط أن يلاحظها و يصفها . و الطبقة هي أيضا مجموعة من الأشخاص و لكنها بالإضافة إلى ذلك بناء فكري يسمح بجمع الأشخاص وفق معايير يمكن إعادة تعريفها في كل مرة ، و من هنا فإن الطبقة هي تعبير يملك قدرة كبيرة على التجريد ، إذ يمكنها أن تكون حقيقية أو افتراضية ، و يمكن أن تحدد مجموعات مكونة أو مجموعات قيد التكوين . فالطبقة إذا تترجم إرادة الفهم التي ترتبط خصوصا بعصر الأنوار . و المقصود هو جمع الأشخاص وفق معايير الوظائف و الشروط الاجتماعية المتشابهة . ( يتيم عبد الله عبد الرحمان ، 2011 ، ص 19 ) .

و يرى ماكس فيبر Weber Max ( 1864 - 1920 ) أن الفئات و التي سماها كذلك ب « جماعات المقام » هي تجمعات أفراد يطالبون و ينجحون في الحصول على تقدير خاص و على احترام الآخرين . هذه التجمعات من الأشخاص تتشكل على قاعدة الاعتقاد المشتركة بنبالة أوضاعهم ، و هي تنحو للمحافظة على ذاتها عن طريق سن قواعد و قوانين عرفية خاصة بها . و على خلاف الطبقات فإن الفئات هي أكثر من تجمعات أشخاص على قاعدة معيار مشترك ، بل تشكل جماعات حقيقية ، يعي الأعضاء انتماءهم إليها و يعملون على ديمومتها و بقائها . ( يانيك لوميك ، 2008 ، ص 33 ) .

و عليه نجد أن ماكس فيبر قد أقام مفارقتة هذه بين الطبقة و الفئة « جماعة المقام » على اعتبار أن المواقع الطبقيّة تتحدد استنادا إلى الوضع و النظام الاقتصادي ، في حين أن الفئات تستند في وجودها إلى الجانب و البعد العاطفي المحصور في عنصر الانتماء .

هناك نموذج آخر حاول الدمج بين المنظورين اللذين قدمهما فيبر : الموقع في النظام الاقتصادي و

الانتماء إلى جماعة المقام ، إنه الحل الذي تبناه بيير بورديو Bourdieu Pierre ( 1930 – 2002 ) ، فالطبقات تتحدد بكميات رؤوس الأموال الاقتصادية و الثقافية التي تملكها . و يحتوي كتاب « التمييز » لبير بورديو في جزئه الثالث « أدواق الطبقات و أساليب العيش » على ثلاث فصول يتضمن كل منها مجموعة من الفئات الاجتماعية – المهنية ، المجموع يشكل ترسيمة طبقة ترتبط على مستويين بثلاث طبقات كبرى ، الطبقة المسيطرة ، البورجوازية الصغيرة و الطبقة الشعبية . ( يانيك لوميك ، 2008 ، ص 35 بتصرف ) .

و عليه يرى العديد من علماء الاجتماع أن مفهوم الطبقة قد تجاوزه الزمن ، فوجود التدرج المنتظم في مواقع اجتماعية أمر مشروع و مسلم به إلا أنه يؤدي بالضرورة إلى وجود صراع بين هذه التجمعات .

كما يؤكد بعض المهتمين بالتصنيف الطبقي أن مصطلح الطبقة الاجتماعية يمكن أن يستخدم فقط في المجتمعات التي تتمتع بالاستقرار السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي ، أما المجتمعات غير المستقرة سياسيا أو اقتصاديا أو اجتماعيا و التي تتسم بكثرة التغيير في هذه النظم ، يصعب تحديد الفواصل الاقتصادية و الثقافية بين طبقاتها الاجتماعية . ( علي السيد محمد الشخبي ، 2002 ، ص 193 ) .

وقد ميز ابن خلدون بين مفهوم الطبقة و مفهوم الفئة ، و ذلك على أساس مفهوم المهنة ، فكتب يقول أن الطبقة الاجتماعية الواحدة تنطوي عادة على فئات اجتماعية مختلفة ، و نراه يجمع بين فئات القائمين بأمور الدين من القضاة و المفتين و التدرييس و الآذان تحت مقولة القائمين بشؤون الدين أو طبقة رجال الدين . ( حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، 2006 ، ص 158 ) .

كما يذهب كل من ريمون بودون Boudon Raymond و هنري مندراس Henri Mendras و فرانسوا بوريكو Bourricaud Francois و جاك لوتمان Lautman Jacques إلى أن الطبقة الاجتماعية لم يعد مفهوما اجتماعيا ، فلم يعد سوى مفهوم شكلي لا وجود له من الناحية التطبيقية ، ذلك أن تقسيم الجماعات الاجتماعية تزايد و عوامله تداخلت من حيث : الدخل ، الوضعية القانونية ، الوظيفة ، الحرية ، المهنة ، المكانة الاجتماعية ، الشهادة العلمية ، السن ، الأسرة ، الأصل الاجتماعي ... ، و قد أصبحت هذه العوامل بمثابة لجز يستوجب إعادة التركيب بناء على متطلبات كل بحث . ( Noreck Pierre–Jean et Ferréol Gilles '2001 p 119 )

لقد تبنت فرنسا دليلا يحدد الفئات الاجتماعية المهنية ، الذي ظهرت صيغته الأولى سنة 1954 ، من آخر التعديلات المقامة عليه ما سمي بدليل المهنة و الفئات الاجتماعية – المهنية PCS 2003 ، و هو تصنيف للنشاطات المهنية في ثلاثين فئة اجتماعية – مهنية ، هي نفسها متجمعة في بضع عشرة مجموعة ، المبدأ هو تصنيف مجموع السكان الناشطين في عدد من الفئات الكبرى ، يتمتع كل منها بتجانس اجتماعي معين و ذلك اعتمادا على المهنة . و لقد اعتمد هذا الدليل كجهاز إحصائي لدراسة الحراك الاجتماعي في فرنسا ، على أن الدليل لا يستعمل لفظ طبقة لأن المنطق الذي يتضمنه يحيل إلى التمايزات بين مجموعات محددة بالمكانة التي

تحتلها في البنية المهنية ، إلا أنه لابد من التذكير بأن المهنة تظهر كعنصر أساسي و كاف لتعيين الوضعية الاجتماعية للفرد . ( يانيك لوميل ، 2008 ، ص 81-76 بتصرف )

و الحقيقة أن الدور الذي يقوم به الفرد في المجتمع و المركز الذي يشغله في الحياة العامة و الفعاليات المهنية الممارسة و النفوذ الشخصي و الأهمية الاقتصادية كل ذلك يجعل للفرد مكانته في فئة دون أخرى ، و على اعتبار المقومات ذاتها تظهر لكل فئة عاداتها و مقوماتها الثقافية التي تختلف كثيرا أو قليلا عن تقاليد و مقومات الأفراد الذين ينتمون إلى الفئات الأخرى . و عليه فإن الدخل وحده لم يعد مقياسا لتحديد الفئة الاجتماعية التي ينتمي إليها الفرد و لا إلى تحديد مقوماتها الثقافية ، بل يقع الاهتمام أكثر على كيفية توجيه هذا الدخل و تحديد أولويات إنفاقه ، فقد نجد عائلات توجه مداخيلها نحو الغذاء فالأولوية لإشباع الحاجيات الأساسية من المأكول و المشرب ، في حين قد نجد عائلات ذات دخل أقل و لكنها تهتم عند إنفاقها بالتمتع بالرفاهية العقلية و التغذية الروحية من سفر و امتلاك مكتبة ثرية بعناوينها و تشجيع أطفالها على ارتياد المسارح و الاهتمام بالحدائق ... إلى غيرها من المظاهر الثقافية المختلفة ، و منه بات من الصعوبة بما كان تحديد معالم واضحة و بدقة للتمييز بين مختلف الفئات الاجتماعية ، لذا أخذ الاهتمام بالفئات نوعا من الخصوصية من خلال تصنيفها إلى فئات مهنية و أخرى ثقافية و أخرى على أسس اقتصادية و هكذا .

و تظهر الاختلافات بين الفئات كذلك في طراز المسكن و كيفية تأثيثه و الشارع المختار للسكن و طريقة اللباس و طراز الترفيه ، و أهم نقطة يمكن التركيز عليها هي أساليب التربية في كل أسرة و لكل فئة . و الجدير بالملاحظة و المناقشة أنه و نتيجة للانفتاح و التطور التكنولوجي و الاحتكام إلى الوسائل الإعلامية المختلفة بات التقليد قائما بين مختلف الأسر و عليه بين مختلف الفئات الاجتماعية ، فتداخلت الخصائص و تناقلت المبادئ التي أثرت على الأفكار بطريقة نسبية لدى البعض و جذرية لدى البعض الآخر ، و هو كذلك عامل مهم لا يجوز التلهي عنه عند دراسة الفئات الاجتماعية المختلفة .

- مواقف و آراء خلدونية في وظيفية اللغة :

يتعلم الإنسان لغة الكلام القومية منذ طفولته ، بعد أن يتوافر لديه الاستعداد الفطري التام لاكتسابها ، و يلتقي عنده خطأ اللغة و الفكر ، ثم يبدأ شيئا فشيئا بالكشف عن مميزات اللغة و إدراك غاياتها و وظائفها و ارتباطها بما حوله . يستهلك حياته مع والديه و بقية أفراد أسرته و أهل محيطه « فيسمع » كما يصف ابن خلدون « استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ، ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ، ثم لا يزال سماعه لذلك يتجدد في كل لحظة و من كل متكلم و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة ، و يكون كأحدهم ، هكذا تسير الألسن و اللغات من جيل إلى جيل و تعلمها العجم و الأطفال » . و بهذا تصبح عملية اكتساب الإنسان للغة متطابقة أو متماشية مع قوانين اكتساب العادات و التقاليد الأسرية و الاجتماعية ، ثم مدى تطور عملية التواصل اللغوي و فاعليته و أثره يبقى متوقفا على ما يتاح من فرص التواصل و الاحتكاك الاجتماعي

على نطاقه الخاص و العام . ( أحمد محمد المعتوق ، 1996 ، ص 42 ) .

اعتبر ابن خلدون أن من أهم وظائف اللغة أنها وسيلة للفهم ، و المقصود بالفهم هنا الإدراك و الإحاطة بالشيء و استيعاب المعاني المقصودة بالكلام . و هذا يستوجب أن تكون قدرة الفرد على التحكم في اللغة التي يمتلكها تشمل فهم المعاني و الدلالات ، أي التعرف على معاني الألفاظ و العبارات و التراكييب في سياقاتها المختلفة ، ثم ما يقتضيه اللفظ عند إطلاقه . كما أن اللغة وسيلة للفهم فإنها بالضرورة أداة للتعبير ولذلك أوضح ابن خلدون أن : « اللغة في المتعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده . وتلك العبارة فعل لسانی ناشئ عن القصد بإفادة الكلام . فلا بد أن تصير ملكة متقررة في العضو الفاعل لها وهو اللسان . و هو في كل أمة بحسب اصطلاحاتهم » . و يذهب محمد إدريس ، في مقاله : خلدونيات لغوية ، عن وظائف اللغة أن ابن خلدون قرن تعريف اللغة بوظيفتها كأداة للتعبير رغم أن لها أكثر من وظيفة ، مما يدل على أن هذه الوظيفة يمكن أن تعتبر أهم وظائف اللغة على الإطلاق ، إذ أن قدرة الإنسان على التعبير عن مقصوده تعني أنه يمتلك أداة تمكنه من أن يكون فاعلا حرا بدلا من أن يكون متلقيا فقط ، وهذا يعني أن التعبير أعلى مرتبة من الفهم . ولذلك يستحيل أن نجد شخصا يتقن الحديث بلغة دون أن يفهمها ، بينما قد نجد من يفهم لغة دون أن يحسن التعبير بها ، وربما يكون هذا سببا آخر لقرن ابن خلدون تعريف اللغة بوظيفة التعبير ، إذ تستلزم هذه الوظيفة بالضرورة تخطي مرحلة الفهم ، فيكون بذلك تعريف اللغة كوسيلة للتعبير شاملا إياها وسيلة للفهم . ( محمد إدريس ، 2012 ، مدونة الكترونية بدون صفحة ) .

و يواصل في مقاله ليشير إلى أن اللغة ليست فقط وسيلة للتواصل و لكنها أيضا وسيلة انتماء ، حيث أشار ابن خلدون إلى هذه الوظيفة حين تكلم عن نطق القاف في اللهجات الدارجة في زمنه فقد كان أهل الحضر ينطقونها كما تنطق في الفصحى ، أما أهل البادية فكانوا « يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف » . وهو نطق شائع في يومنا هذا في اللهجات العامية في أغلب دول الخليج واليمن والعراق وأجزاء من بلاد الشام وصعيد مصر والسودان وليبيا وأجزاء من المغرب العربي . والشاهد في كلام ابن خلدون أن نطق القاف في زمنه كان سبيلا إلى معرفة إذا ما كان المتكلم من أهل المدن أو البادية ، لدرجة أن من كان يريد أن يظهر انتمائه إلى أهل البادية كان « يحاكيهم في النطق بها » ، مما يشير إلى أن اللغة وسيلة انتماء وليست وسيلة تواصل فحسب .

و لقد أشار ابن خلدون في فصول من مقدمته إلى اختلاف اللغة العربية المستعملة في عصره عن لغة العرب الأوائل في إحالة منه إلى التفريق بين اللغة العربية الفصيحة و العامية ، فهو من خلال إدراكه لظاهرة انتقال اللغة العربية من المضربة إلى الحميرية قد أقر بأن اللغة وليدة مجتمعها تتطور بتطوره و تتغير عبر مساره التاريخي و يرى أن التحول اللغوي أمر طبيعي يحكمه سير الزمان و تداول الأجيال ، و عليه فعلى هذا المجتمع الجديد أن يحتضن هذه اللغة بحلتها الجديدة ، مادامت الوظيفة الحقيقية للغة قد آتت أكلها .

و هذا يدفعنا إلى الإحالة بالقول إلى ضرورة الاهتمام بالتحولات الاجتماعية و أخذها بعين الاعتبار عند التأسيس

لبناء اللغة العربية لدى الطفل ، فالقول هنا ليس بإلغاء العلامات الإعرابية و دلالات النحو و الصرف و لا هو القول بإقرار العامية إلا أنه لا بد على كتب اللغة الحديثة أن تأخذ بعين الاعتبار ما يعيشه الطفل المتعلم من تغيير على جميع الأصعدة ، ثم ما هو فيه من انفتاح على آليات و الكترونييات جديدة ، وتوظيف هذا الواقع الجديد في تنمية اللغة و غرس حبها في الطفل لا لجعله عاملا على طمسها ، حيث أصبح الطفل يتعامل مع اللغة العربية بوصفها كائنا غريبا عن هويته الاجتماعية ، في حين كان لا بد و أن تشكل هذه اللغة عنصرا لصيقا بها .

و يرجع ابن خلدون فساد اللغة إلى عامل الاختلاط من خلال تسرب الألفاظ الأعجمية الدخيلة إلى اللسان العربي و التي تكون بمثابة المخدر الذي تزداد جرعاته فيزداد خطره .  
- السجلات اللغوية و الانتماء الاجتماعي في منظور بازيك بيرنشتاين :

عرف بازيك بيرنشتاين Bernstein Basil ( 1924 - 2000 ) شهرة انطلاقا من دراسته للرموز اللغوية للتلاميذ بانجلترا موزعين في انتمائهم الاجتماعي على طبقات اجتماعية مختلفة سنة 1971 ، و لقد جمع أفكاره و تحليلاته حول الموضوع في كتابه الذي ظهر في طبعته الأولى و اقترح للترجمة الفرنسية سنة 1975 تحت عنوان *contrôle et sociolinguistiques codes : sociales classes et Langages: social* ، و حيث حققت أعماله وقعا حقيقيا في الوسط العلمي الاجتماعي بانتت أحد أهم الأعمال المرجعية في علم الاجتماع التربوي ، و في هذا السياق يمكن اعتبار الإسهامات البحثية النظرية و التطبيقية التي قام بها بازيك بيرنشتاين من أهم الدراسات و أولها التي اهتمت بالرموز الاجتماعية و اللغوية و أثرها على إعادة الإنتاج الاجتماعي ضمن مبدأ لا تكافؤ الفرص ، حيث أن المدرسة لا تتعامل مع الأطفال بالطريقة ذاتها ، الشيء الذي سيؤثر على عملية التوجيه نحو المجال المهني أو المجال المعرفي و منه إعادة إنتاج الطبقات نفسها .

و قد استهل بيرنشتاين دراساته في المجال اللغوي من حيث تحويل اهتمام البحث في علم الاجتماع التربوي ضمن نظريات إعادة الإنتاج من الماكرو مجسدا في لا تكافؤ الفرص إلى علم اجتماع يهتم بالأنماط الواقعية للامساواة ، فإذا كانت نظريات إعادة الإنتاج تنظر إلى المدرسة باعتبارها المؤسسة التي تتجسد من خلالها حقيقة اللامساواة ، فإن بيرنشتاين يخصص هذه اللامساواة في إطار الخطاب التربوي ، على اعتبار أنه الناقل للعلاقات السلطوية الخارجية إلى المدرسة ، هو الشيء الذي أوجد فروقات بين الأطفال انطلاقا من انتماءاتهم الاجتماعية . فحيث أغلب نظريات إعادة الإنتاج تكتفي بدراسة و تحليل العلاقات بين التلاميذ و النص البيداغوجي - المنهاج - انطلاقا من طبقتهم الاجتماعية أو جنسه أو أصوله الاجتماعية ، و هي في الحقيقة علاقات خارجية عن المؤسسة التعليمية ، و لكن بيرنشتاين أكد أن اللامساواة المدرسية علاقتها غير مباشرة باللامساواة الاجتماعية ، و لكن يعاد إنتاجها عن طريق نظام نقل المعارف الذي يعتمد خطابا بيداغوجيا قريبا من فئات اجتماعية و بعيدا عن الأخرى ، و عليه فهو يؤكد في دراساته أنه لا وجود لثقافة فقيرة ، فقط هي ثقافة بعيدة عن ما تقدمه المدرسة . ( Stavrou Sophia ' 2007 P' 165-168 )

كما أبرز كيف أن الرمز اللغوي يعكس نوع التضامن الاجتماعي القائم بين الفرد و الجماعة الاجتماعية التي ينتمي إليها ، فالرمز المحدود يعبر عن وجود تضامن آلي ، أما الرمز المتطور فيعكس التضامن العضوي ، الأول يفرض وجود جماعة تتشابه فيها الخصائص ، فهو يفترض أن تكون الجماعات منغلقة على ذاتها ، في حين أن الآخر يدعو إلى الانفتاح ، بحيث يدفع الطفل إلى إظهار أنه المستقل ، و يتضح ذلك من خلال أن الجماعات المغلقة تفرض نوعا من العلاقات الاجتماعية المنصهرة فالكل يعرف الكل ، الشيء الذي يجعل عملية التخاطب أمرا ثانويا ، فلا تظهر الجماعة حاجة إلى كثرة الكلام .

و في السياق ذاته نجد أن بازلي بيرنشتاين يؤكد أنه لكل مجتمع ، لكل جماعة ، لكل مؤسسة أو منظمة ، من المدرسة إلى الزوج المكون من المرأة و الرجل مرورا بالعائلات المختلفة تتصرف و تأخذ مبادئها و قوانينها من البيئة الاجتماعية التي تنتمي إليها ، إلى اختيار طريقة العيش ، طريقة التواصل ، و عليه فالهيكليّة الاجتماعية بأكملها تمر من خلال المنظومة اللغوية . فاللغة هي مرآة المجتمع ، و عليه فللغة نموذجين مثاليين تتدرج بينهما أشكال لا متناهية من اللغات الفرعية التي تقترب أو تبتعد عن النموذجين وفق درجات تختلف باختلاف الجماعات الاجتماعية ، ينتشك لكل نموذج رمز يمثك بما يحتويه من مقومات و خصائص هو ما يسمى بالسجل اللغوي ، هذه السجلات بما تحتويه من رموز لها خصائصها المميزة لها و المتناقضة مع غيرها من السجلات ما يعكس ليس فقط نوع و شكل اللغة المعتمدة و لكن نوع الحياة و شكل التضامن الاجتماعي و نوع العلاقات الأسرية و الاجتماعية القائمة بين أفراد الجماعة الواحدة ، نوع المعاملات القائمة بين أفراد الأسرة و نوع العلاقات المسيطرة على أعضائها و انعكاس ذلك على الطفل من الناحية الانفعالية النفسية ، الاجتماعية التواصلية و الثقافية بل و حتى العلمية و المهنية . و عليه المتتبع لنظرية بازلي بيرنشتاين يجد أنها الأساس الذي تقوم عليه النظرية في مجالي الإنتاج و إعادة الإنتاج و لا تكافؤ الفرص لأنها لم تكتف بحصر العلاقة بين الطفل و المدرسة و لكنها ذهبت إلى أبعد من ذلك . و هو الأمر الذي أكده بازلي بيرنشتاين بتصريحه أن أغلب المقاربات في دراستها للموضوع تهتم بدراسة الظاهرة من أعلى إلى أسفل ، أي انطلاقا من السياسات التربوية العامة إلى المؤسسات التعليمية قصد إيجاد حلول لمشكلة تصنيف و إعادة إنتاج السياسات البيداغوجية للطبقات الاجتماعية ، و على عكس هذه التيارات يرى بيرنشتاين أن طبيعة دراسته تتطلب هيكلة البحث من الأسفل إلى الأعلى ، أي اعتماد مقاربة تهدف إلى فهم الميكرو من أجل تحليل الماكرو .

( Alan R .Sadovnik' extrait d'une revue sans date et sans page )

إن تعليمية اللغة و التأقلم وفق النظام الاجتماعي الذي يتواجد عليه الفرد يتمان بطريقة طردية ، و عليه فإن الأشكال اللغوية المختلفة لا تعتبر خصوصية فردية حيث أن خصوصيتها الاجتماعية و الثقافية أكبر ، و هذه الخصوصية هي التي تنعكس على إمكانية أو عدم إمكانية النجاح المدرسي و المهني للفرد ، و منه مكانة هذا الفرد داخل السلم الاجتماعي . و عليه فإن تعلم شكل معين من الأشكال اللغوية - لغة الجماعة التي ينتمي إليها

الفرد - تجعل لهذا الفرد موقعيته الخاصة داخل هذه الجماعة ، و هي الموقعية ذاتها التي تضع نفس الفرد في وضع متناقض إزاء جماعات اجتماعية أخرى لا تمتلك الشكل اللغوي ذاته . فاللغة التي نتكلمها و التي تمنح لتجاربنا معنى هي وفقا لمعجم بيرنشتاين لغة طبقات ، لغة تعكس الطبقيّة . (Alain 'léger 2000 'p 2-3)

و عليه عندما ينتقل الطفل إلى المدرسة لا يمكن أن يعزى الأمر إلى عدم قدرة الفرد على الفهم أو التعبير الشفوي أو الكتابي ، أو انعدام السيطرة و التحكم في اللغة ، ففي نظر بيرنشتاين ليس هناك طفل متفوق و طفل عاجز ، بل الطفل الذكي هو ذلك الذي يتمكن من فهم الرمز المستعمل في المدرسة ، و أن وظيفة ذكاء الطفل تتحدد من خلال ما يمنحه له من قدرة على استعمال الإمكانيات المتاحة اعتمادا على اللغة الاجتماعية المملوكة و المستغلة . و عليه يرى بيرنشتاين أن الخطاب يتحدد وفق نموذجين مرجعيين هما الخطاب المشترك و الخطاب الرسمي ، و كلاهما يعد نموذجا للتحليل ، أو هما ما يمكن تسميته وفقا للغة الويبييرية النماذج المثالية ، بينهما تتحدد العديد من النماذج المختلطة ، تقترب أخرى من المثالية و تبتعد عنها أخرى . (Alain 'léger 2000 'p 03)

و هنا يبرز التقاطع القائم بين الخطاب الأفقي ممثلا في الممارسات اللغوية و الخطاب العمودي الذي تمثله لغة المعارف المختلفة ، فالخطاب الأفقي هو خطاب الحياة اليومية الذي يختلف باختلاف الانتماءات الاجتماعية فيظهر مجزءا ، في حين أن الخطاب العمودي يظهر وفق بناء متكامل و منطقي لا اختلاف فيها . ووفقا للنظرة البيرنشتاينية فإن بؤادر الثقافات الفرعية تظهر في الأشكال اللغوية المختلفة ، فالخطاب إذا يبقى هو المؤشر الأول للأبعاد الاجتماعية و النفسية و الثقافية للفرد ، فاللغة هي مرجعية الفرد .

و لقد جعل بيرنشتاين اللغة الرسمية هي المعيار الذي يحدد مستوى تطور نمط لغوي معين من خلال احتساب مدى التباين القائم بين هذا النموذج المثالي مجسدا في اللغة الرسمية و الأنماط اللغوية لمختلف الفئات الاجتماعية كمقياس للتعرف على حركة اللغة من خلال دراسة التقارب و التباعد بين هذه الأنماط السائدة و اللغة الرسمية في مجتمع ما ، و اعتمد بيرنشتاين في ذلك على العديد من المؤشرات منها : التسلسل المنطقي بين الوحدات اللغوية ، انسجام البنى النحوية ، مستوى التجريد ، طول الجمل المستعملة أو قصرها ، القدرة على الاستخدام السليم للصفات و التوظيف المناسب للضمائر ... و غيرها .

و تشير الدراسات في هذا المجال إلى أن لغة الفئات الاجتماعية الوسطى تتجانس إلى حد كبير مع طابع و مستوى اللغة الرسمية و ذلك على خلاف الفئات الاجتماعية الأخرى كالفئات العمالية و الفئات الفلاحية . و يرجع الباحثون هذا التقارب بين النماذج اللغوية لأبناء الفئات الاجتماعية الوسطى و النماذج اللغوية الرسمية إلى بعض السمات الثقافية الفرعية الخاصة بأبناء هذه الفئات و التي تنطوي على السمات الثقافية التربوية التالية :

(Gras Alain '1974 'p 69)

- البيئة الاجتماعية المنظمة لأبناء الطبقات المتوسطة .
- يجري سلوك أبناء هذه الفئة وفق منظومة واضحة من الأهداف والغايات .
- يوجد نظام تعزيز معياري ثابت فيما يتعلق بالثواب والعقاب .
- يربط مستقبل الأطفال بمصيرهم المدرسي .
- تتسم البيئة الوسطى بأنها بيئة عقلانية منظمة .
- تتيح هذه الفئة لأبنائها مزيداً من حرية التعبير والتواصل .
- تؤكد هذه البيئة على أهمية التعبير عن المشاعر الانفعالية عند الأطفال وفي هذا الخصوص يرى بيرنشتاين أن الأسرة تنظر إلى الطفل بوصفه فرداً ذا شخصية وهي تتعامل معه كما هو ، وبالتالي فإنها تستخدم بنى لغوية من أجل التعبير عن الفردية .

و لقد عزز هذا الرأي و دعمه قول عبد الرحمان ابن خلدون من قبل : " فالمتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم ، يسمع كلام أهل جيله و أساليبهم في مخاطبتهم و كيفية تعبيرهم عن مقاصدهم ، كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها ، فيلقنها أولاً ، يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك . ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة و من كل متكلم ، و استعماله يتكرر إلى أن يصير ذلك ملكة و صفة راسخة و يكون كأحدهم . هكذا تصيرت الألسن و اللغات من جيل إلى جيل و تعلمها العجم و الأطفال » .

تأسيساً على ما سبق يمكن لنا أن نلخص نظرية بيرنشتاين اللغوية فيما يلي :

(علي أسعد وطفة وعلي جاسم الشهاب ، 2004 ، ص 169 )

- التطور اللغوي لدى الطفل مرهون ومشروط إلى حد كبير بالوسط الاجتماعي الذي يعيش فيه .
- نمو اللغة الشفوية و تطورها يلعب دوراً هاماً في نمو القدرات العقلية و تطورها عند الأطفال .
- يتأثر النمو اللغوي عند الأطفال بطبيعة العلاقات العائلية القائمة في إطار الوسط العائلي ، و هي لا تساعد على النمو اللغوي في الأوساط الاجتماعية الدنيا لأنها تتميز بكونها بسيطة و مباشرة و سلطوية ، أي على عكس ما يحدث في الأوساط الاجتماعية العليا .

و يميز بيرنشتاين بين لغة العمال و لغة الفئات الوسطى ، و يطلق على لغة العمال مصطلح اللغة المحدودة أو الرمز المحدود Restreint Code ، و هي لغة حسية حركية تفتقر إلى أدوات الربط و ينحدر فيها مستوى التعبير الرمزي المجرد و تتداخل فيها المقدمات و النتائج كما تسودها عبارات طفيلية ( مثل أليس كذلك ؟ أتعرف ؟ ... ) . أما لغة الفئات الوسطى فهي اللغة التي يطلق عليها اللغة المتقنة أو الرسمية ذات الرمز المتطور Code élaboré ، فتتميز بدرجة عالية من الرمزية و التجريد ، و استخدام الضمائر و التسلسل في استخدام الأزمنة و أدوات الربط . و يرجع بيرنشتاين هذا التباين بين لغة العمال و لغة الفئات الوسطى إلى تباين طبيعة الحياة الاجتماعية بين الوسطين . فالوسط العمالي يتميز بهيمنة البعد العاطفي للحياة المشتركة التي تتطلب نوعاً من

الحوار البسيط أو لغة التفاهم الضمنية ، فالحياة المشتركة تجعل الأفراد قادرين على فهم كثير من الأمور بإشارات بسيطة و هي بالتالي تقلل من أهمية الحوار المتقن .

و يرجع تباين التحصيل المدرسي في نظر بيرنشتاين إلى التباين في مستوى تحصيل اللغة الرسمية و قدرة الأفراد على توظيف اللغة و الاستخدام الرمزي لها بما يخدم القدرة على إدراك الأشياء التي تحيط بالفرد على نحو فوري و تلقائي ، هو ما يتمتع به أبناء الفئات الوسطى ، في حين يتأسس الاستعمال اللغوي لأبناء الفئات العمالية كما حددها بازلي على ما يمتلكونه من لغة عامية تفتقر إلى التنوع الرمزي الضروري للتعبير عن المشاعر و الجوانب المعرفية الانفعالية لدى الطفل .

و نجد كذلك أن ما ذهب إليه بازليك بيرنشتاين من تطبيق لمفهوم السجلات اللغوية مجسدا في مصطلحي الرمز المحدود و الرمز المتطور قد ظهرت معالمه في دراسات ابن خلدون اللغوية في تعريفه للملكة اللغوية : « اعلم أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة ، إذ هي ملكات في اللسان ، للعبارة عن المعاني و جودتها و قصورها بحسب تمام الملكة أو نقصانها ، و ليس ذلك بالنظر إلى المفردات ، و إنما هو بالنظر إلى التراكييب . فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير بها عن المعاني المقصودة ، و مراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال ، بلغ المتكلم حينئذ الغاية من الإفادة مقصوده للسامع ، و هذا هو معنى البلاغة » . (ابن خلدون عبد الرحمان ، 2007 ، ص 607 ) .

و في الإطار ذاته ترى فتية حداد أن ابن خلدون ينطلق من فكرة أن اللغات هي قدرات في اللسان للدلالة على المعاني التي من الممكن أن تكون ذات جودة أو ذات قصور ، اعتبارا أو قياسا بتمام الملكة أو نقصها ، أي أن ابن خلدون يرى أنه كلما كانت الملكة تامة و سليمة ، كلما كانت المعاني ذات جودة ، و يستدل لهذا بقوله : « ... فإذا كانت ملكته في الدلالة اللفظية مستحكمة ارتفعت الحجب بينه و بين المعاني ... و هذا شأن المعاني مع الألفاظ » . كما أنه يرى أن تمام هذه الملكة اللغوية لا يتم بالنظر إلى المفردات و إنما بالنظر إلى التراكييب ، حيث يقول : « ... و إنما هو بالنظر إلى التراكييب فإذا حصلت الملكة التامة في تركيب الألفاظ المفردة للتعبير عن المعاني المقصودة ... و هذا هو معنى البلاغة » . و على هذا الأساس قسم ابن خلدون التراكييب إلى قسمين : (فتية حداد ، 2011 ، ص 143 )

- تركيب أساسي و غرضه التبليغ « الجملة البسيطة - الملكة الأساسية » .
- تركيب بياني راق و غرضه الإجادة و التزيين « الملكة البيانية » .
- يعنى الأول بتركيب الألفاظ المفردة مع بعضها البعض للتعبير بها عن المعاني المقصودة المباشرة البعيدة عن عالم الأساليب ، أما الثاني و هو التركيب الراقى ، فهو التركيب البياني و هو أعقد من التركيب الأول من حيث :
  - ملكة أساسية غرضها التبليغ و الإفادة و هي خاصة بكل الناس .
  - ملكة بيانية يتبلور و يظهر فيها الجانب الراقى و الانزياحات التي تخرج اللغة من قالبها العادي البسيط إلى

قالب الأساليب المعقدة و المركبة .

و الانطلاق من هذا الأساس يمهّد إلى أن الملكة الأساسية محتواة بالضرورة في الملكة البيانية و هذا ما أشار إليه بازيل بيرنشتاين من أن الطفل المتمكن من الرمز المتطور متمكن بالضرورة من الرمز المحدود و لكن العكس غير ممكن .

– واقع اللغة العربية بشكليها الفصيح و العامي :

لا بد عند الدراسة أن نفرق بين اللغة الأم و لغة الأم ، فضلا على أن اللغة العربية تحتوي الفصيح و الأفضح و نحن لم نعد اليوم نحد بالطرف في مؤسساتنا التعليمية الأفضح لأنه بات حكرًا على القلة النخبوية من علماء اللغة أو شعراء فحول أو غيرهم ، و أصبحنا لا نطالب إلا بالفصيح من اللغة العربية و التي أصبح يطلق عليها تسميات مختلفة مثل عربية المثقفين ، العربية المنطوقة ، العربية المهدبة أو العربية الوسطى .

و فضلا على ما تحتويه اللغة من أهمية اجتماعية تتجسد من خلال التواصل و التعبير عن المشاعر و الحاجات و في كونها وعاء للفكر و التاريخ فهي هوية الفرد الاجتماعية و انتمائه الحضاري . و تظهر أهمية اللغة العربية الفصيحة انطلاقًا من كونها لغة محكية و مكتوبة في حين أن اللغة العامية – و إن كانت واقعا لا مفر منه – هي لغة محكية أكثر منها مكتوبة .

و قد نشأت للعربية مستويات في لغة الخطاب المعاصر فهناك اللغة الفصحى التي أصبحت عصية على الاستعمال عسيرة الفهم و هي لغة الخطابات الأدبية و البحوث العلمية لاسيما في العلوم الإنسانية و الأدبية ، و لغة الجرائد و المجلات و المحاضرات و الندوات و نحو ذلك ، أما لغة الخطاب اليومي في التعايش و السلوك اللغوي في التعبير عن الحاجات اليومية فهي العربية المختلطة التي تتكون من الدخيل اللغوي و مجريات التغيير المشروع الذي ينحرف بالعربية عن مسار الفصاحة و هي التي يصطلح عليها بالعامية و هي ذات مساحة واسعة جدا من لغة التخاطب اليومي في السلوك اللغوي المعبر عن مدى التعايش الاجتماعي . و قد عد ابن جني أن هذا التغيير من التطور اللغوي نتيجة لميل المتكلمين بالعربية إلى ترك ما يستثقل من الكلام إلى ما هو أخف منه أو نتيجة ما تتطلبه حاجة السلوك اللغوي عند الناطقين إلى السرعة في الأداء و طلب التعجل فيه ، و هو من معطيات عصر التطور التكنولوجي و التوسع الحضاري في الانفتاح على لغات العالم . (رياض كريم عبد الله البديري ، 2011-2012 ، ص 05 بتصرف )

و قد عرف اللساني الأمريكي تشارلز إدوارد فرغسون Ferguson Charles الازدواجية اللغوية في وصف اللغة في شكليها الفصيح و العامي سنة 1959 بأنها : « وضع لغوي مستقر نسبيا ، يضاف إلى اللهجات الأساسية للغة التي يمكن أن تحوي لغة معيارية أو لهجات إقليمية معيارية نمطا لغويا فوقيا شديد التباين والتقنين وغالبا ما يكون أكثر تعقيدا من ناحية القواعد يكون هذا النمط حاملا لمخزون واسع ومعتبر من الآداب المكتوبة والراجعة لفترة سابقة أو لمجموعة لغوية مغايرة . يتم اكتساب هذا النمط عبر التعليم الرسمي و يستخدم لمعظم الأغراض

المكتوبة و الشفهية الرسمية ولكنه لا يستخدم من قبل أي شريحة من المجموعة لأغراض التخاطب الاعتيادي « . (علي الهاشمي بن النوير داوي ، ص 03).

و هنا يميز فرغسون بين المستويين العامي و الفصيح ، حيث لك شك لغوي مواقفه الوظيفية الخاصة ، إلا أنه اعترف لاحقاً ( 1970 ) بوجود شك آخر للغة يقع بين الفصحى و العامية و هو ما سماه باللغة الوسطى ، و هو نمط من اللغة يستخدمها المثقفون حتى خارج الإطار الرسمي ، و هذه هي اللغة التي يجب تعليمها للأطفال قبل مواجعتهم للفصحى على مقاعد المدرسة لينتهي لإتقانها تدريجياً ، و عليه لا يجد الطفل صعوبة في التأقلم معها و لا يشعر إزاءها بالاغتراب . (زبير دندان ، 2013 ، ص 05 بتصريف)

و الحقيقة أن مسألة المسافة الكائنة بين اللغة العربية الفصحى و اللهجات قد أسست لتباين في الآراء على مستوى البحوث اللغوية ، حيث أقرت أغلب البحوث بالتباعد الكائن بين اللغة العربية الفصحى و غيرها من العاميات لحد القول أحياناً أنهما لغتان مختلفتان تماماً : « ولكن العربية ليست لغة واحدة أو متماثلة ، فهي من ناحية لغة معيارية مقننة ومكتوبة لا ينطقها أحد كلغة أم وهي في الواقع لا تعدو أن تكون في متناول أولئك الذين حصلوا على تكوين صلب فيها . ومن ناحية أخرى ، فإن العربية تتخذ العديد من أشكال التعبير التي يشار إليها بازدراء على أنها « لهجات » تختلف عن بعضها البعض وعن اللغة المعيارية بنفس القدر الذي تختلف فيه الفرنسية عن اللغات الرومانسية وعن اللاتينية » . و بالمقابل ترجح العديد من الدراسات الأخرى أن المسافة بين الفصحى و العامية متداخلة فالعديد من الكلمات و الألفاظ المستعملة في اللغة العامية تجد جذورها في الفصحى الشيء الذي يجعل الفرد في حياته اليومية يفهم اللغة العربية الفصحى و إن كان لا يستطيع التكلم بها على وجهها الصحيح . (علي الهاشمي بن النوير داوي ، ص 06)

إن مزاحمة العامية للغة العربية الفصحى أصبح من أهم أسباب تدهور هذه الأخيرة لما يظهر نتيجة ذلك من ازدواجية الاستعمال اللغوي ، لغة البيت و الشارع من جهة و لغة المؤسسات التعليمية من جهة أخرى ، و عليه فإن الأسرة بتداولها اليومي للغة العامية تغرس ما يسمى باللحن في لغة أبنائها ، ما ينعكس سلباً على الواقع اللغوي للطفل الذي تتجسد لديه معالم الضعف و عدم القدرة على التعبير بشكل سليم خال من العيوب النحوية و الصرفية و الإملائية ، ثم ما لهذه الفجوة من انعكاس على مستواه التعليمي ، ذلك أن عدم امتلاك الطفل للكفاءة اللغوية يؤثر حتماً على تحصيله للمعارف التي لا تقنن إلا بشكل اللغة الفصحى ، خصوصاً و أن انتقال الطفل من البيت إلى المدرسة ، من الحياة اليومية العادية إلى الحياة المعرفية يستلزم انتقاله من اللغة التي ألفها و اكتسبها بطريقة عفوية إلى أخرى هو مجبر على تعلمها بوعي .

و أمام السياسات التربوية التي أصبحت اليوم تنادي باعتناق لغة الأم – العامية – في السنوات الأولى من الحياة الدراسية للطفل ، استناداً إلى توصيات المنظمات العالمية و التي على رأسها تظهر منظمة الأمم المتحدة للتربية و العلم و الثقافة اليونسكو كخطوة لمساعدة الطفل على التأقلم مع المعطى الدراسي الجديد ، و دعاة

الإصلاح من المتمسكين بضرورة اعتماد اللغة الأم - الفصحى - في التعليم بصفة دائمة و نشطة بين أطراف العملية التعليمية لمساعدة الطفل على التأقلم مع معطياتها منذ بداية تجربته التعليمية ، ما يدفع إلى طرح العديد من الإشكالات التربوية لإيجاد الطريقة الناجعة لتحقيق الأهداف التربوية من جهة و مسايرة الطبيعة الاجتماعية للطفل من جهة أخرى .

- خاتمة :

يلتحق المتعلمون بمدارسهم وفق مكتسبات لغوية و معطيات اجتماعية مختلفة ، و على هذا الأساس تستقبل المدارس هؤلاء الأطفال ببرامج تعليمية موحدة ، و على مر خمس سنوات من التعلم المدرسي وفق هذه البرامج الموحدة و المناهج التي من المفروض أن تكون قد تأسست قيد التعامل وفق المعطيات النفسية و الاجتماعية و المعرفية الخاصة بكل فئة من فئات المتعلمين احتراماً لمبدأ الفروقات الفردية ، إلا أننا لازلنا نجد أن هناك تبايناً ظاهراً و جلياً في التمكنات اللغوية لدى هؤلاء المتعلمين من حيث القدرة على التعبير و الاسترسال في الكلام و اعتماد اللغة الرسمية و فهم المطلوب و التفاعل معه و القدرة على التجاوب ، على اعتبار أن اللغة هي الأساس الذي تركز عليه العديد من مقومات الطفل المساعدة على النجاح المعرفي و الوجود الاجتماعي و القبول النفسي . و انطلاقاً من الحاجة إلى المهارات اللغوية في كل مجالات التحصيل الدراسي و النجاح المهني فيم بعد فإنه من الضروري التعرف على أسباب وجود هذا التباين ؛ حيث أنه لتعلمية اللغة العربية الفصيحة أهميتها في زيادة خبرات الطفل و معارفه و زياده محصوله الفكري ، إذ أنه من المعروف أن التمكن اللغوي يزيد من ثقة الفرد بنفسه و يعزز التفاعل العلائقي و يحفز على التواصل الاجتماعي ، الشيء الذي يتوج بقابلية التكيف و القدرة على الإبداع . فالسيطرة على اللغة تمكن من اكتساب صفات القيادة و تشجع على أن يكون الفرد فاعلاً في محيطه ، هذا المحيط هو الذي يشكل للفرد بداية بروز الملامح اللغوية و هو الذي يؤثر على تمكن الطفل من لغته الرسمية .

- المصادر و المراجع المعتمدة :

- باللغة العربية :

- 01 - ابن خلدون عبد الرحمان ، 2007 ، ديوان المبتدأ و الخبر في تاريخ العرب و البربر و من عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر ، دار الفكر للطباعة و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان .
- 02 - أحمد محمد المعتوق ، أوت 1996 ، الحصيلة اللغوية : أهميتها ، مصادرها ، وسائل تنميتها ، سلسلة عالم المعرفة .
- 03 - حسين عبد الحميد أحمد رشوان ، 2006 ، الثقافة : دراسة في علم الاجتماع الثقافي ، مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، مصر .

- 04 - رمضان عبد التواب ، 1985 ، المدخل إلى علم اللغة ، مكتبة الخانجي ، القاهرة .
- 05 - رياض كريم عبد الله البديري ، 2011 - 2012 ، استعمال اللغة في الخطاب المعاصر ، دراسة التصحيح اللغوي و ثقافة تعدد اللغات - نقد و تحليل - ، مؤتمر اللغة العربية ، بيروت .
- 06 - زبير دندان ، 2013 ، اللغة العربية ، إشكال الازدواجية و التعليم الرسمي ، ورقة بحث في إطار فعاليات مؤتمر الدولي الثاني للغة العربية بعنوان « اللغة العربية في خطر ، الجميع شركاء في حمايتها » ، دبي .
- 07 - سهير محمد سلامة شاش ، 2007 ، علم نفس اللغة ، ط1 ، مكتبة زهراء الشرق ، القاهرة ، مصر .
- 08 - عبد الله سويد ، 1993 ، علم اللغة ، دار المدينة القديمة ، طرابلس ، ليبيا .
- 09 - علي أسعد وطفة و علي جاسم الشهاب ، 2004 ، علم الاجتماع المدرسي ، بنيوية الظاهرة و وظيفتها الاجتماعية ، ط1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع ، بيروت ، لبنان .
- 10 - علي السيد محمد الشخبي ، 2002 ، علم اجتماع التربية المعاصر - تطوره ، منهجيته ، تكافؤ الفرص التعليمية - ، ط1 ، دار الفكر العربي ، القاهرة .
- 11 - علي الهاشمي بن النوير داوي ، الازدواجية اللغوية في العربية و مضاداتها ، ورقة بحث في إطار بلورة نقد متكامل لمفهوم الازدواجية في اللغة العربية وفقا لدراسات فرغسون .
- 12 - فتيحة حداد ، 2011 ، ابن خلدون و آراؤه اللغوية و التعليمية - دراسة تحليلية نقدية - ، منشورات مخبر الممارسات اللغوية في الجزائر ، جامعة مولود معمري تيزي وزو .
- 13 - محمد إدريس ، خلدونيات لغوية ، عن وظائف اللغة ، مدونة الكترونية لغتنا اليوم ، الجمعة 31 أوت 2012 على الساعة : 9:27 صباحا .
- 14 - يانيك لوميل ، 2008 ، الطبقات الاجتماعية ، ط1 ، ترجمة جورجيت الحداد ' دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، لبنان .
- 15 - يتيم عبد الله عبد الرحمان ، 2011 ، بيار بورديو أنثربولوجيا ، إضافات ، العدد 14 ، الجمعية العربية لعلم الاجتماع ، بيروت .
- باللغة الأجنبية :
- 01 - Alain Gras 1974 ' ' Sociologie de l'éducation ' Textes fondamentaux ' Larousse ' Paris .
- 02 - Alain Léger' 2000 ' Le débat bérnstein - Labov : Différences langagières ou inégalités ? ' sans édition.
- 03 - Alan R. Sadovnik' Basil Bernestein' Perspectives : revue trimestrielle d'éducation .

- 04 – Garmadi . j ' 1981' La sociolinguistique ' PUF ' Paris .
- 05 – Gilles Ferréol et Jean–Pierre Noreck' 2001' Introduction a la sociologie' armand colin' Paris' 8é édition.
- 06 – Madeline Grawitz ' 1984' Méthodes des sciences sociales ' Dalloz ' Paris.
- 07– Sophia Stavrou' 158 | 2007' Bernstein Basil. Pédagogie' contrôle symbolique et identité : théorie' recherche' critique' Revue française de pédagogie.